2
تفجيرات دهب
من يقف وراء الإرهاب في سيناء؟

عندما وقع التفجير الأول فى فندق طابا السياحى تم القبض على عدد ممن اشتبهت فيهم سلطات التحقيق المصرية، وحدث الشيء نفسه بعد تفجيرات شرم الشيخ الأكثر عنفا وضراوة. وقد اختلف موقف السلطات الرسمية حول علاقة من قاموا بالتفجيرين، فقيل يومها أن بعض من لم يقبض عليه فى تفجيرات طابا هو الذى أسهم فى تفجيرات شرم الشيخ وبعدها خرجت مصر كلها تندد بالإرهاب وتعلن العزم الشعبى والرسمى على مناهضته. ووسط هذا الغليان أدخلت بعض الأوساط الأجنبية فكرة تلقفتها أجهزة الإعلام المتعطشة للمعلومات و الإثارة وهى الإشارة بالاتهام إلى منظمة القاعدة، لكن لم تلبث سلطات التحقيق أن استبعدت هذه الفرضية بعد أن ألمحت إلى استحسانها، ربما دون أن تدرك مخاطر الموافقة عليها، فتوجه التحقيق صوبها. وافترض الرئيس مبارك فى تصريحات عقب تفجيرات شرم الشيخ أن الإرهاب لا يتجزأ وأياً كان المكان الذى يقع فيه.

ولعل الأسئلة التى أثيرت بعد التفجيرين لاتزال تلح، حيث أجبنا عليها فى مقال نشر عقب التفجيرات بأيام، وأول هذه الأسئلة: هل هناك علاقة بين التفجيرين؟ والآن هل هناك علاقة بين هذين التفجيرين وتفجير دهب؟ كانت الإجابة على العلاقة بين تفجيري طابا وشرم الشيخ بالإيجاب، وعلى سلطات التحقيق أن تقدم الإجابة الفنية عن السؤال. أما السؤال الثانى فيتعلق بالصلة بين هذه التفجيرات

وبين ظاهرة الإرهاب فى مصر. وقد اتخذت الإجابة خطين، خط يرى أن ما حدث فى شرم الشيخ يعتبر جيلا جديدا من الإرهابيين وموجة متجددة من موجات الإرهاب لأنها تستهدف الشعب المصرى كما تستهدف الدولة المصرية. أما الخط الآخر الذى بدا مقبولا فهو أن الإرهاب فى مصر قد انتهى، دون أن تنتهى دواعيه والمطالب التى قدمها، وأن اختفاء الإرهاب فى مصر يرجع ليس فقط إلى المعالجة الأمنية وحدها، وإنما يعود فى الأساس إلى رفض المجتمع المصرى تعرض أفراده لأضرار فادحة فى حياته وأنه رفض الإرهاب الذى تذرع بأنه يستهدف إجبار الحكومة على التفاوض حول طلبات الجماعات الإرهابية، برغم أن هذه الطلبات هى نفسها طلبات المجتمع المصرى. لقد سلم المجتمع فى مصر بأن أخطاء الحكومة قد أضيف إليها مآسى الإرهاب، فوجد المجتمع نفسه، بشكل ما، فى نفس الخندق الذى تقف فيه الحكومة، رغم تحفظاته على العديد من القضايا والسياسات. وخلصنا إلى أن الإرهاب فى سيناء ملف جديد تجب دراسته بالذكاء الواجب، كما يتعين الإجابة عن السؤالين مرة أخرى مضافا إليهما حادث دهب، وما إذا كان حادثا منفصلا أم أنه جزء من مسلسل بدأ فى طابا. بصرف النظر عن المنظمة التى سوف تعلن مسؤوليتها عن حادث دهب، يبدو أن هذه الأسماء وهمية لاتفيد التحليل أو التحقيق.

وأقدم ملاحظاتى على حادث دهب فى سياق الافتراض بأن إسرائيل ليست بعيدة عن هذا الحادث، حتى وإن عرضت على السلطات المصرية المساعدة فى عمليات الإنقاذ، بل إن هذا الطلب نفسه محاط بالشكوك.

الملاحظة الأولى: أن مصر أعلنت عن لقاء فى شرم الشيخ بين الرئيس مبارك وأولمرت رئيس وزراء إسرائيل الجديد فى وقت تتعرض فية حكومة حماس لأقسى

الضغوط من كل اتجاه لإسقاطها نكاية فى الخط السياسى الذى رفعته واتهامها بإغفال الواقع. تؤدى هذه الملاحظة إلى الافتراض بأن من قام بالتفجيرات لايريد إتمام هذا اللقاء مما يعطى انطباعات مناقضة للسياق العام، خاصة وأن هذا اللقاء يمكن أن يساعد على تسوية بين إسرائيل وحماس، كما يمكن أن يجرى فى إطار شرح إسرائيل لوجهة نظرها من حماس.

الملاحظة الثانية: أن تفجيرات دهب هى الحلقة الثالثة على التوالى فى سيناء بعد تفجيرات طابا وشرم الشيخ وكلها مدن سياحية وفى ذروة المواسم السياحية. فإذا كان الهدف هو ضرب السياحة، فقد لوحظ أن السياحة المباشرة من الخارج إلى خليج العقبة لم تتأثر، وكان يخشى ضربها بعد حادث شرم الشيخ وهو الأخطر والأكبر خاصة وأن المدينة أصبحت عاصمة مصر الدبلوماسية ومقر الإقامة المعتادة للرئيس مبارك، ولكن السياحة انتظمت بعد هزات خفيفة.

الملاحظة الثالثة: أن كل هذه التفجيرات اتهم فيها بدو سيناء، وتردد أنهم تعرضوا للكثير من المتاعب والاحتجاز والتعذيب والضرر خلال عملية التحقيق، ومع ذلك لم تسفر التحقيقات عن نتيجة صالحة للإعلان، أو حتى كى تقود القيادة السياسية إلى منفذ التفجيرات. بل إن الحديث عن تورط بدو سيناء قد ارتبط بالتشكيك فى وطنيتهم خاصة خلال الاحتلال الإسرائيلى لسيناء رغم عرض بعض النماذج الوطنية التى قبعت عقودا فى سجون الاحتلال الصهيونى، وهذا بدوره كفيل بتحول ولاء البدو نحو إسرائيل. وكان علاج ذلك كله هو تعمير سيناء، ولكن هذا المشروع القومى الذى نقلت من أجله مياه النيل فى ترعة السلام قد تعطل لأسباب لا يذكرها ولا يناقشها أحد. فهل تعمير سيناء تعارضه إسرائيل حتى لا تنشأ كتلة بشرية وتجمعات سكانية مرتبطة بالأرض وتشكل خط الدفاع

الأول إذا عادت لإسرائيل غريزة التوسع فى سيناء بعد أن قامت بغزو سيناء مرتين عامى ١٩٥٦ ، و١٩٦٧، فيصعب اجتياح سيناء خاصة بعد أن أصبحت منزوعة السلاح والوجود العسكرى المصرى، بصرف النظر عن الجدل العقيم الذى تمسك به البعض لتبرير هذا الوضع غير المتكافئ؟ إذا صح هذا الافتراض، فلماذا وافقت الحكومة المصرية على رغبة إسرائيلية تثير الشك فى أطماع إسرائيل فى سيناء؟

الملاحظة الرابعة: وهل من قبيل الصدفة المحضة أن تقع التفجيرات كلها بالتحديد فى مناسبات قومية يحتفل بها المصريون وتتصل بسيناء؟ فقد وقع تفجير طابا بينما مصر كلها تحتفل بانتصار جيشها الباسل فى معركة تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى وفى ذكرى ذلك اليوم من عام ٢٠٠٤. وفى ذكرى ثورة ٢٣ يوليو من عام ٢٠٠٥. وقعت تفجيرات شرم الشيخ المروعة التى هزت مصر ولكنها لم تؤثر على سياحة البحر الأحمر. وفى ذكرى تحرير سيناء هذا العام ٢٠٠٦. وقعت تفجيرات دهب، فهل ننتظر فى هذه المناسبات وقوع هذه التفجيرات؟

إذا أضفنا إلى هذه الملاحظة انطباعات أخرى متصلة بها حول أطماع إسرائيل فى سيناء فقد تقترب الصورة الخاصة بعلاقة إسرائيل بهذه التفجيرات، دون الالتفات فى هذا التحليل إلى بعض الضحايا من إسرائيل، لأن المخططات الكبرى لابد أن يكون لها بعض الضحايا. فقد أكدت إسرائيل دائماً أن سيناء كانت مسرحا لتهديدها ولم يحدث أن هوجمت إسرائيل من أى اتجاه، وأن سيناء تكون خطراً كلما كانت حكومة القاهرة جزءاً من المنظومة العربية ولها دور عربى ظاهر، فتسعى إسرائيل إلى وضع مسافة بين القاهرة والقضية الفلسطينية وقد نجحت فى ذلك ، كما أصرت على تحييد سيناء وذلك بنزع سلاحها ورفض الوجود العسكرى المصرى فيها على النحو الذى أوضحته اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل. ولكن إسرائيل لاتقصر نظرها

إلى سيناء على الجوانب الأمنية، وإنما تنظر إلى سيناء من منظور شامل يتصل بجوانب المشروع الصهيونى. فإسرائيل تردد دائماً بأنها تعانى من صغر المساحة وانعدام الموارد الطبيعية ولديها مشروع طموح لطرد كل الفلسطينيين من الأراضى الفلسطينية، لأنها تريد الأرض بلا سكان، حتى تصبح دولة إسرائيل دولة يهودية خالصة ربما بحلول عام ٢٠٢٠. تدرك إسرائيل كذلك أهمية سيناء ومواردها الطبيعية والمائية، وهى التى استخدمتها من قبل، كما تلحظ أن مصر لم تستفد بها بالشكل المطلوب منذ استردادها، وتشعر بأن إسرائيل هى الأجدر بحيازتها واستغلالها بدلا من تركها.

من ناحية أخرى تهدف إسرائيل من شيوع الإرهاب فى سيناء إلى الإيحاء بأن الفراغ الأمنى المصرى قد ملأه الإرهاب فى سيناء وهو خطر على أراضيها مما يدفعها إلى اقتراح التعاون مع مصر والولايات المتحدة فتصبح سيناء مسرحاً للحملة الأمريكية لمكافحة الإرهاب بما يمكن إسرائيل من السيطرة عليها فى هذا الإطار، وليس عن طريق الغزو والاحتلال. ويكفى أن يعود القارئ إلى كلمة شامير رئيس وزراء إسرائيل خلال مؤتمر مدريد للسلام فى أكتوبر ١٩٩١ ونظرته إلى سيناء ومقارنته بين المساحة الصغيرة لإسرائيل مقابل أكثر من ١٤ مليون كيلو متر مربع فى العالم العربى.

يضاف إلى ماتقدم أن لدى إسرائيل برنامج استقدام عدد من يهود العالم خلال المرحلة القادمة لتبرير التوسع الإسرائيلى. ولعلنا نلاحظ أن إسرائيل تعتقد أن ظروف مصر والمنطقة العربية والنظام الدولى تشكل وضعاً مثالياً لتنفيذ أطماعها مما يجعل تفجيرات دهب دليلا جديدا على صحة هذا التحليل، كما أنه يدق ناقوس الخطر على سيناء التى لم تتوقف إسرائيل عن اختبار ردود الفعل المصرية فى شأنها،

دون أن تتوقف لحظة واحدة أمام بعض الأصوات المتشنجة التى تطغى على التفكير الهادئ، بشأن قدرة مصر على صد إسرائيل، لسبب بسيط وهو أن إسرائيل لا تريد سيناء عن طريق الغزو كما حدث فى المرتين السابقتين، ولكن فى إطار جديد عنوانه مكافحة الإرهاب والتعاون من أجل السلام (الإسرائيلى طبعاً).

وأخيرا، فإنه إذا كان المقصود من هذه التفجيرات هو إظهار عجز مصر عن حماية سيناء من الإرهاب مما يشكل خطراً على الأمن الإسرائيلى من جهة مصر، فإن تصوير حادث كنيسة الإسكندرية على أنه دليل على عجز الدولة المصرية عن تحقيق التعايش بين أبناء المجتمع المصرى، وهو ما أكده الخطاب القبطى خلال هذه الأحداث، أمكن تصور الصلة بين من يريدون المساس باستقلال مصر فى إدارة المجتمع المصرى، وبين من يريدون المساس بسيادة مصر على سيناء، وكلا الهدفين يتحققان بمثل هذه الأحداث.